اساليب الحكى والسرد رقم 2

تحدد اتر- لويس 1991ثلاثة اساليب كبرى للسرد يمكن ان يقابلها الباحث اثناء اجرائه لعملية المقابلة التي يروى فيها المبحوث تاريخ حياته وهي :

اولا :- اسلوب السرد الموحد .

ثانيا :- اسلوب السرد المفكك او المجزأ .

ثالثا :- اسلوب السرد الحواري .

ونحن نميل الى ان نضيف الى هذا التقسيم فئة رابعة , وهي الفئة التي يسميها كوهلر - رايسمان السرد العرضي (اي رواية الحكاية من خلال وقائع معينة ) .

وكما هو الحال مع جميع اشكال السرد , فان الطريقة التي يتبعها مبحوثك في رواية حكايته , قد تتاثر- الى حد بعيد- بعوامل شتى منها , مثلا: عامل العرق , والطبقة , والنوع الاجتماعي . وترتبط بهذه الخصائص اعتبارات التعليم , والعمل , والموقع الجغرافي الذي يقيم فيه المبحوث. و كثيرا ما قد يكون لدي الباحثين توقع بان المبحوث سوف يسمع من الباحث عنوانا لموضوع او سؤالا عاما , فيستجيب له بان يقدم شرحا ذا تسلسل زمني لخبرته المتصلة بهذا الموضوع , حيث يطرح امثلة عميقة الدلالة لتوضيح خبرته , وذلك في نفس الوقت الذي يضل مركزا فيه على هذا الموضوع او هذا السؤال . وهذا هو اسلوب السرد الموحد .

يلاحظ ان الاجزاء المتجاورة من هذه القصة التي تحكي تتناغم معا في كل واحد , و عادة ما يكون دالك في شكل اجابة على سؤال محدد . حيث تكون الكلمات والعبارات جميعا مرتبطة بفكرة محورية ... اي ان القاص يقوم بقدر ما يستطيع بتدعيم اجابته عن طريق تقديمه لشواهد مختلفة ذات صلة بهذه الاجابة . وتكون نتيجة ذلك حوار ممتد, يؤدي تركيزه على موضوع محدد الى جعله حديثا موحدا .

كما ان الشخص الذي يستعمل مثل هذا الاسلوب في كلامه قد يخبرنا بشيء يتعلق بالطريقة التي يرى بها نفسه , وبالطريقة التي يفسر بها خبرات حياته . شاهد ذلك ان الاسلوب الموحد في السرد قد يدلل على ان المبحوث يرى الموضوع بوضوح وان لديه اجابة واضحة بشانه . وبجانب ما يدل عليه الاسلوب الموحد في السرد من اشارات تتصل بالموضوع المطروح للحوار , فانه قد يدل على ان هذا الراوي يشعر , وعلى مستوى اكثر عمومية , بان حياته حياة متماسكة و واضحة المعالم . وهذا الاسلوب السردي يختلف اختلافات لها دلالاتها عن شكل السرد المفكك او المجزأ .

وهو الشكل الذي تتسم فيه الاجزاء المتجاورة من القصة بوجود مجموعة متعددة الاشكال من الجمل او العبارات التي تبدو في ظاهرها غير مترابطة .

وقد يكون هذا الشكل من القص مضادا لما هو بديهي في نظر بعض الباحثين الذين لم يعتادوا على هذا الشكل من الكلام . وعلى هذا تصبح اللقاءات الاولى بين الباحث والمبعوث - حيث تمارس مهارات الاصغاء والحديث , فتعمل على بناء الالفة بينهما - تصبح هذه اللقاءات في غاية الاهمية بالنسبة للباحث اذ تجعله مرتاحا الى الكلام الذي يصدر عن هذا الراوي ( والعكس بالعكس) .

كما ان الاسلوب المفكك او المجزأ في السرد الشفاهي يستطيع الكشف عن المعنى من منظور الشخص الذي يطلعنا على حكايته . شاهد ذلك , ان هذا الراوي قد يشعر بانه بانه متشظ او مجزأ , او يشعر ان مختلف مكونات ذاته او خبراته مفككة وغير مترابطة . وقد يصدق هذا الحكم على الافراد الذين يعانون من اشكال متعددة للقهر الناجم عن اعتبارات العرق , والطبقة , والنوع الاجتماعي , والحياة الجنسية , و هي الاشكال التي تشكل اطارا لخبراتهم الحياتية . وفي هذه الحالة , قد تؤدي مناقشة لمظاهر الاضطراب في صورة الجسد عند المراه الى ان تتحدث راوية او قاصة سوداء اللون عن الطريقة التي علمتها بها معلماتها الخصوصيات او صديقاتها المخلصات استراتيجيات التغلب على المشكلات والمصاعب لتطبيقها في معالجة مشكلة التعصب العنصري , والتي ساعدت بالفعل في اعطائها ذلك الشعور بالتقدير العالي للنفس الذي تحتاج اليه كذلك لتقاوم به ثقافة شديدة الولوع بالجنس تختصر النساء في اجسادهن الحسية فقط . و تغريها مكابدتها للضغوط الثقافية الاجتماعية المسلطة على جسد الانثى , تغريها بالدخول في مناقشة مسالة العرق , وذلك لان هذه الضغوط تعتبر- بمقتضى خبرتها -ضغوطا ذات روابط متداخلة . وقد يتغير اتجاه قصتها فينتقل هنا وهناك , فان هذا التغير يتم بطرق مرتبطة ارتباطا معقدا بخبرتها الخاصة بالموضوع الجاري مناقشته . وثمة اسباب اخرى من شانها ان تجعل السرد مفككا او مجزأ . فان كانت هذه الراوية لم تحظ ابدا بفرصة التامل في الخبرات الكثيرة التي تشكل حياتها , فان العملية التي تقوم بها وهي تشارك بحكايتها قد تكون هي الاخرى عملية جوهرية لاكتشاف النفس . وهكذا قد يكشف اسلوبها السردي عن " شكل من اشكال تجميع هذه الاجزاء معا " في نظرها و في نظر الباحث في نفس الوقت . وبذلك فان ما يبدو - في اول الامر- بعيدا عن الموضوع قد يكون في الواقع مرتبطا تمام الارتباط في القضية الجاري مناقشتها . وهذا الامر مرتبط اساسا بقناعات السابقة بان كثيرا من اولئك الذين نطلب منهم ان يتكلموا جرت العادة على كتم اصواتهم نظرا لتهميشهم داخل المجتمع . فهولاء الذين حرموا من الوصول الى الادوات الاجتماعية التي بها يحكون قصص حياتهم لسبب يرجع الى عرقهم, او اثنيتهم , او طبقتهم الاجتماعية او نوعهم الاجتماعي , او توجههم الجنسي قد لا يكون لديهم اي خبرة سابقة بسرد حكايتهم . و في هذا الاتجاه تقول الباحثة النسوية المعنية بمقابلات التاريخ الشفاهي ارميتاج " سوف نعلم ما نريد معرفته من خلال اصغائنا للافراد المعتادين على الكلام وليس من غيرهم " . وبامكاننا ان نرى هذا الوضع في اشكال الثقافة الشعبية كذلك , كما هو الحال في المسرحية التي كتبتها ايف انسلر بعنوان " مونولوجات جنسية " , والتي ذكرت فيها بعض النساء انهن يعانين صعوبة شديدة في التحدث عن خبراتهن الجنسية لسبب وحيد وهو انه لم يسبق لاي منهن ان طلب منها قبل ذلك ان تتحدث في ذلك الشان . فقد كن لا يعرفن ما يقلنه , كما كن يندهش اذا اهتم امرؤ بهذا الشان . وقد يكون الاسلوب المفكك او المجزئ في سرد الحكايات في هذه الحالات نتيجة لما يقوم به الباحث من اخراج للافكار والمشاعر المدفونة التي لم يسبق لها ان اخرجت من قبل . و قد تشتمل العملية الخاصة بالافصاح عن مكنون النفس- عن طريق الحوار الشفاهي - واطلاع الاخرين عليه , قد تشتمل هذه العملية على شكل من التفاوض (الاخذ والرد ) الذي يتم التعبير عنه من خلال الكلمات .

كما ان الرواة قد يسردون في حكاياتهم حوارات جرت في الماضي كوسيلة لتقديم اجابة على الاسئلة . وقد تثمر هذه الطريقة حصول الباحث على اجابة غير مباشرة على سؤال طرحه, فانها تكون اجابة على جانب عظيم من الاهمية والقدرة على التصوير الدقيق .

ومثل هذه الاجابة جزء لا يتجزأ من القصة التي تتميز باعادة بناء الحوارات على الصورة التي يحتمل ان تكون حدثت بها في الماضي . و تستعمل العناصر التي تحتوي عليها هذه الحوارات لالقاء الضوء على فكرة او حادثة. ويقوم الراوي بتعديل اسلوبه, وانغمته, وطبقة صوته ليصور مختلف المتحدثين ومختلف الانفعالات (كان يستعمل طبقة الصوت العالية مثلا في التعبير عن الغضب او الدهشة ) .

وتؤكد اتر -لويس ان الراوي قد يفضل ان يروي حوارا جرى في الماضي بدلا من الاجابة مباشرة على احد الاسئلة , وذلك كوسيلة لنقل المشاعر المؤلمة او غيرها من مشاعر البؤس التي تطفو على السطح عندما تسترجع احداث خبرات الماضي . وعلى ذلك يعد هذا السرد للحوارات التي جرت في الماضي الية دفاعية للتخفيف عما تشعر به النفس من الانفعالات المؤلمة او الانفعالات الحاده بالذات . و ان من الاهمية القصوى ان نمكن الراوي من تحقيق هذا النوع من وقاية النفس , وذلك نظرا لانه - وكما سبق ان اوضحنا - ليس بوسع الباحث ولا الفرد المشارك في البحث (المبحوث ) ان يعرف المدى الذي تبلغه عملية مقابلة التاريخ الشفاهي من كشف الغطاء عن بعض الانفعالات . فالرواة ( المبحوثون) يحتاجون للحرية في معالجة الانفعالات غير المتوقعة بطريقة تعمل لصالحهم . وبالنسبة للباحث الاثنوجرافي الذي يجري يجري المقابلة , فان ما يقوم به المبحوث من تكرار للحوارات الماضية قد يزود هذا الباحث بالتفصيل والتوصيفات التي يكون الباحث مهتما بها اشد الاهتمام . وتبين اتر – لويس ان هذه العمليات المتكررة لاستعادة قد تقوم - في الواقع - بدور " العدسة المكبرة " التي من خلالها يمكن ابراز تفاصيل بكل وضوح . وقد يستعمل بعض الناس , حال استنباطهم لوجوه الشبه بين اسلوب الحكي المفكك واسلوب الحكي الحواري , قد يستعملون اطارا عرضيا ( اي قائما على اساس ذكر حادث عرضي او احداث عرضية متسلسلة ) يشاركون من خلاله بحكاياتهم . وقد عقد كوهلر - رايسمان 1987مقارنة بين الاساليب العرضية والاساليب المتسلسلة الخطية اي المتتابعة زمنيا التي تتبعها النساء عندما يحكين قصص زواجهن . ذلك ان السرد العرضي يختلف عن الاسلوب الموحد الذي يستعمل فيه الراوي نموذجا خطيا (اي ذا النظام الزمني متتابع ) في سرد حكايته. وفي السرد العرضي يتحدث المبحوث ويرى قصته بوصفها احداثا عرضية داخل حياته . ويعتمد اسلوبه في الكلام على رواية الخبرات كاحداث عارضة لا تخضع لنظام زمني متسلسل , بل تكون اقرب الى الخضوع للافكار الاساسية .

وقد يستعمل المبحوثون اكثر من واحد من هذه الاساليب السردية وهم يشاركونك المعرفة . وقد تكون التغيرات الحادثة في اطر السرد مؤشرات مهمة تدل على مشاعر الراوي او على النقاط التي يهتم بها . وبالتزام الباحث بالاهداف المتعلقة بفهم المعنى الاجتماعي انطلاقا من منظور اولئك الذين يشاركون في صنعه , فان قيام الباحث بالتطوير الحقيقي لمهارته كباحث يجري مقابلات للتاريخ الشفاهي يقتضي فهم االاطر المختلفة التي من خلالها يتناقل الناس افكارهم , كما يقتضى الانتباه للفروق الدقيقة في التعبير, كحدوث نوع من التغير في شكل السرت مثلا . و في هذا الشان , فان عملية اجراء المقابلة تثمر ما هو اكثر من الكلمات المسطحة المكتوبة على صفحة سجل المقابلة , اذ تثمر فهما مركبا ومتكاملا لقصة الشخص كما وردت سابقا .